نقطة الصفر
ZERO POINT

إضاءات في تربية الأبناء

القدوة الحسنة

إعـداد :

د. عماد الدين خضر

Follow us
@ZeroPointEESD

نقطة الصفر
ZERO POINT

القدوة الحسنة

من أهم عناصر التربية نشأة الأطفال في أسرٍ متوازنة مستقرة، فإذا توفرت هذه الضرورة فإنّها تعتبر أهم عامل في التربية الإسلامية للأطفال، وانطلاقًا من قول الرسول ﷺ: **"كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسئُولٌ عن رَعِيَّتِهِ"** [البخاري: 5200] .

ما المقصود بالمسؤولية هنا؟

إنّ ما يطبقه معظم الآباء من هذه الكلمة -مع الأسف- هو خمسون بالمئةِ فقط، وهو التغذية واللباس فقط، ويعتقد الآباء أن عملهم طوال النهار وتوفير سبل ومتطلبات العيش لأبناءهم هو جل مسؤولياتهم، ولكن هذا الكلام صواب في جزء منه فقط، وخطأٌ في معظمه.

فالمسؤولية تحمل معنيين هنا:

الأول: التغذية والملبس والمسكن (الأمور الاقتصادية).

الثاني: تغذية العقول وتقويم السلوك.

وهناك اعتقاد خاطئ عند الآباء أن الابن ينمو بطريقة تلقائية جسديًا واجتماعيًا ونفسيًا وهذا خاطئ أيضًا، إن تربية الأبناء بنواحيها كافة أمانة في أعناق الكبار وسوف يُسألون عنها يوم القيامة، والأمانة تقتضي أن لا نحمّل الظروف الاقتصادية والاجتماعيّة اللوم في عدم قدرة الآباء تربية الأبناء، فالموضوع سهل ولا يحتاج إلى عناء، فنحن الآنَ في صدد الكلام عن **القدوة الحسنة**، وهذه أفضل وأقوى وسيلة لتعليم الأبناء الأقوال والأفعال الحسنة؛ لِأنّ تقويم الأبناء عن طريق تقديم القدوة والصورة المثلى لهم بالالتزام أمامَهم بالأفعال والسلوكات الحسنة، هو أفضل وسيلة للتربية، بل أفضل كثيرًا من النصح والإرشاد.

ويكوّن الطفلُ عَن طَريقِ القدوة الحسنة مجموعةً من الأسس الحياتية، أهمُّها:

1- بناءُ قاعدة أخلاقية حسنةٍ تؤهله للتعامل مع المجموعات الإنسانية التي سيعيش معها خلال سنوات حياته.

2- تكوينُ ضمير ذاتي يعمل كضابطٍ داخلي يتحكم في سلوكه.

3- تطويرُ شعور الندم والخجل من الأفعال غير الإنسانية وغير المناسبة التي قد تواجهه.

4- بناءُ منظومه خلقية لأي تفاعلات أو تجارب جديدة في حياته المستقبلية.

وعلى العكس تمامًا، فإن افتقاد القدوة النموذجية داخل بعض الأسر أمر ينذر بالخطر؛ لأنَّه يمثِّل فقدان المَثَل الأعلى الذي ينير الطريق المستقيم للأبناء والعائلة عمومًا، وعلى سبيل المثال لا الحصر، لو تناولنا موضوعَ الصدقِ ونقيضَه الكذبَ وتأثيرهما على الأبناء، فبعضُ الآباء يستهينون بهذه القيمة أمام أبنائهم وكأنّها حدَثٌ عابر؛ عندما يكذب الأب أمام أبنائه لأي سبب كان، بل ويُقحِمُهم في التصرف السلبي، فإنْ طَرَقَ البابَ أحدُهم ولم

يكن مرغوبًا به، يطلُب الأب من ابنه الردَّ على الطارق بقوله: (قل له: أبي غيرُ موجود). ولا يعلمون أن سبب دمار الأطفال هو هذه التصرفات وعدمُ المبالاة بها أمامَ أبنائهم.

أيها الأب، أنت قدوة لولدك شئت أم أبيت، رضيت أم لم ترضَ، فعيون أولادك متعلقة بك، إن قمت قاموا، وإن قعدت قعدوا، إن كذبت كذبوا، وإن صدقت صدقوا، إن دخنت سيدخنون، ولو قلت لهم لا تقلدوني ولا تتبعوني فأنت على خطأ، تأكد أنَّ ما تراه عيونُهم أصدقُ مما تسمعُه آذانهم، فهم سيتبعونك وسيعملون كما تعمل، وسيسألك الله سبحانه وتعالى عن اتّباعهم إياك، ولا يجوز لك المفارقة بين نصحك وفعلك، فقد **قال تعالى: {أَتَأْمُرونَ النّاسَ بالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ}** [البقرة: 44]

فالنفس بطبيعتها وسجيتها البشرية تَأْلف وتُعايش البيئة وتتأثر بها حسب المنهج أو الطريقة السائدة، كما أن هناك طاقةً سلبيةً أو إيجابيةً صادرة عن الإنسان، وتأكدوا أن فعل الوالدِ أو الوالدة إن كان مصطنعًا فستنعكس آثاره غير المرئية على الأبناء سلبيًا وليس إيجابيًا، وأقصد أن الآثار الطيبة للقدوة الحسنة ستكون قوية وفاعلة على الأبناء إذا اتسم صاحبها بالمصداقية مع نفسه ومع الآخرين، حيث إن الازدواجية في السلوك ربما كانت آثارها المخيبة للآمال كبيرةً جدًا، وستؤدي أيضًا إلى هدم البناء.

لذلك أقول: عندما تأمر أولادك بالخير لا تحرم نفسك من شرف الانتماء له، فالواجب على المربي أن ينظر بعين الاهتمام إلى أن يكون صادقًا مع نفسه ومدركًا لكل خطوة يخطوها، ويجب أن يعلم الأبُ أنَّ كلَّ عملٍ يعمله يجب أن يكون مبتغاه منه تربيةً صالحة لأبنائه، وعليه أن يدرك أن الله قد اختاره لتحقيق رسالة خالدة بهم، ولذا عليه أن يجعلهم داخل بوتقةٍ كاملة متكاملة من الرعاية والسلوك الإيجابي والتربية الصالحة، فأنا سأقف عند ثلاثةِ محاورَ ثابتةٍ في العلم التربوي قد تفيدكم في تربية الأبناء.

المحور الأول: إنّ الإنسان كائنًا من كان، وأينما كان، وكيفما كان ظرفه ووضعه، يحتاجُ في حياته إلى خمسةِ أشياءَ ضروريةٍ جدًا، يبحث عنها وهي:

1. عقيدةٌ يلتزم بها.
2. هدفٌ يمثّل رؤيته ويسعى دائمًا إلى تحقيقه.
3. قدوةٌ يقتدي بها.
4. جماعةٌ ينتمي إليها ويحقق ذاتَه أمامها.
5. مادةٌ روحية تمد روحه بالغذاء.

أيّها الآباء والأمّهات، تأكدوا أنَّ الأشياء الخمسةَ التي ذكرتُها يبحث عنها كل إنسان، أنا وأنتم وأبنائي وأبناؤكم، لذا إذا لم تكن هذه الأمور التي ذكرت خيّرةً ستكون شريرة، فإذا لم تصنع وتضع لأبنائك قدوةً صالحة فإنّهم سيبحثون عن قدوة طالحة، وإذا لم ترسم لهم أهدافًا نبيلة توجههم إليها، فإنّهم سيرسمون لأنفسهم أهدافًا وضيعة.

ما أفضل وسيلة ترسم عن طريقها لأبنائك سبيلًا مستقيمة وصحيحة دون عناء؟

إنّ أفضلَ وسيلةٍ أن تكونَ القدوة الحسنة التي تَمثُلُ أمامهم في تصرفاتك وأعمالك وأقوالك؛ فلا تتعامل معهم إلّا بالخير، وتتعامل مع أمِّهم بالخير فالله قد أمرك ورسولُه بأن تعاملَها بالخير؛ فقد قال رسول الله ﷺ: **"واستَوْصُوا بالنِّساءِ خيرًا؛ فإنَّهُنَّ خُلِقْنَ مِن ضِلَعٍ"** [صحيح البخاري: 5185]، وتعامل مع جيرانك بالخير والقول الحسن.

فإن ألقيت تحية الصباح على جارك فإن ابنك سينهج نهجك، وإذا تجاوزت عن خطأ من أخطائه وذكرت هذا أمام أبنائك وقلت: سامحه الله. فإنّهم سيتراحمون في المستقبل.

إذا بحثت عن حقك في أمر ما، فإنّهم لن يتنازلوا عن حقوقهم في المستقبل، وإذا ذكرت في يوم من الأيام أن قدوتك عمر رضي الله عنه في سيرته وتعامله فإنّهم سيذكرون ذلك، وإذا ذكرت أن قدوتك أبو بكر رضي الله عنه فإنّهم سيذكرون ذلك أيضًا.

وقد يسأل أحدكم: إلى هذه الدرجة تؤثر تصرفاتنا في أبنائنا؟

إنّ تصرفاتنا مؤثرة جدًا في أبنائنا، يجب العلم أن الطفل جهاز لاقط سريع الفعالية يرى ويسمع ويطبق مباشرة أفعال والديه في الدرجة الأولى وأفعال معلميه في الدرجة الثانية، لذلك لن ننسى في هذا المحور توجيه بعض النصائح والإرشادات للمعلمين والإداريين، ولا أقول لهم إلّا ما قال عمرو بن عتبة يوصي مؤدب ولده: **"يا أبا عبد الصمد، ليكن أولَ إصلاحك بنيّ إصلاحُك نفسك فإنّ عيونهم معقودة بعينيك، فالحسن عندهم ما فعلت والقبيح ما تركت، علمهم كتاب الله ولا تملّهم منه فيكرهوه ولا تدعهم منه فيهجروه، روّهم من الشعر أعفّه ومن الكلام أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإنّ ازدحام الكلام في السمع مضلّة للفهم، تهددهم بي وأدبهم دوني وكن كالطبيب الذي لا يعجل بالدواء قبل معرفة الداء، وجنبهم محادثة النساء وروّهم سير الحكماء، ولا تتكل على عذر مني فقد اتكلت على كفاية منك واسترذني بزيادة منهم أزدك".**

المحور الثاني: يقسم إلى قسمين:

أما القسمُ الأول، فقد أشارتْ مراجعُ العِلْم إلى أنَّ الطفلَ حتى عمر الخامسة يَكون صفحةً بيضاء، يمكن أن ترسمَ عليها ما تريد، فإن كان خيرًا فخيرًا وإن كان شرًا فشرًا، وسأُعدّل المعلومة للآباء والأمهات، فالطفل حتى عمر السابعة يكون جاهزًا لكل ما يراه ويسمعُه ليُطبَع في دماغِه، ويتصرفَ على أساسه في حياته.

لذلك إخواني وأخواتي أخصُّ الأزواج الشابة، إنّ ما يُصَبُّ في عقول أبنائكم في السنوات السبعِ الأولى سيكون هو منهجهم الذي سيخزن في عقولهم وسيسيرون عليه طوال حياتهم ودون علمهم؛ لأنَّه سيُطبع في ثنايا الدماغ.

وقد ذكرَ الرسولُ ﷺ هذا الكلام في ثبوت السبع سنوات بحديثه: **"مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ سِنِينَ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ"** [مجموع النووي: 3/ 10]، وقول سيدنا عمر بن الخطاب –رضي الله عنه-: **"لاعبوا أبناءكم سبعًا، وعلّموهم سبعًا، وراقبوهم سبعًا، ثم اتركوا لهم الحبل على الغارب"**.

لذا، إن انحرف أي ابن لأي سبب من الأسباب في إحدى مراحل حياته نحو سلبيات، كالتدخين أو تناول المخدرات أو العدوانية أو غيرها، يستوجب على وليّ الأمر النظرُ لتربيته ابنَه في فترة ما قبل المدرسة، وإلى سلوكه كوليّ أمر أمام ابنه في هذه الفترة، فالطفل -كما ذُكِرَ سابقًا- لاقطٌ سريعٌ لكلِّ ما يصدُر عن والِدِه، من كذبٍ أو تدخين أو صدق وأمانة أو احترامٍ للناس والجيران، أو أي سلوكٍ آخر.

فإنْ كان بيتًا كلُّه خيرٌ في خير؛ بالْتزام الدين والصلاة وأوامر الله، فإنّ ابنَك سيعودُ إلى ما تربّى عليه في هذه السنوات السبع، مع بعض النصح والإرشاد، لذا نؤكد ثبوتَ تربيةِ الأب لابنه، ونقل هذه التربية للابن مهما كانت.

وأمّا القسمُ الثاني، فقد ثبت علميًا في بعض الدراسات أنّ الطفلَ يتعلم بالبصر (60٪) من علومه، وبالسمع (30٪) من علومه، وبباقي حواسّه يتلقى (10٪) فقط، بمعنى أنّ ما يراه ابنُك فيكَ من أعمال وأقوال وتصرفاتٍ، يدعوه إلى الاقتداء بكَ أكثرَ مما يدعوه منطقُك، فقد تقولُ له: يا بُنَيَّ، لا تكذب! ولكن يراك تكذب، فهو يتعلم بالعين أكثر مما يتعلم بالأذن. قد تقول له: يا بُنَيَّ صلِّ! ولا يراك تصلي، فهو يتعلم بما يراه بعينيه أكثر من أذنيه، فإذا كان الأب صالحًا في تصرفاته كان الابن كذلك، وإن كانت الأم محتشمة بلباسها كانت البنت كذلك.

لذلك قالوا: **"من شابه أباه فما ظلم"**، وقالوا:

"إذا كان ربُّ البيت بالدُّفِّ ضاربًا فشيمةُ أهلِ البيتِ كلِّهِمُ الرقصُ"

وفي بعض الدراسات المسحية على اقتداء الأبناء بالآباء وجدوا أن معظم الأولاد يمشون وراء آبائهم في اعتناقاتهم واعتقاداتهم وأفعالهم.

أمّا **المحور الثالث والأخير**: فهو أنّ الإنسان يأخذ كلامه ومعارفَه وتصرفاتِه وأفعالَه بأسلوبين: إمّا تعليمًا، وإمّا **محاكاة وتقليدًا**.

فأي الأسلوبين هو الأقوى؟

من منطلق تدريسي لمادة الرياضيات فترة طويلة ثم انتقالي إلى العلم التربوي وخاصة مجال تربية الأطفال عامة ومن يعانون من صعوبات تعليمية ومشكلات دراسية بشكل خاص، فقد ثبت أن العلوم جميعها:

- ✓ تبدأ محسوسة خاصة لطلبة الروضة الأولى والثانية، باستخدام الوسائل والأدوات والتقليد والإيماءات.
- ✓ ثم تنتقل إلى مرحلة التمثيل بالصور ومقارنة الكلمات، وهذا ما نراه حقيقة في كتبنا حتى الصف الثاني والثالث.
- ✓ ثم بعد استيعاب الطفل أساسيات العلم بهذين الأسلوبين تكون المرحلة الثالثة وهي العلم المجرد المبني على النظريات والحقائق العلمية للصفوف العليا.

وبهذا أتوقع أن الرسالة قد وصلت، بمعنى أن ثبوت العلم في الذهن عن طريق المحاكاة والتقليد أشد استحكامًا ورسوخًا من أي أسلوب آخر، من هنا قال النبي ﷺ: **"وَصَلُّوا كما رأيتُموني أُصَلّي"** [صحيح البخاري: 6008]، ولم يقل كما سمعتموني.

فقد ذُكر أنّ سيدنا مالك بن أنس -رضي الله عنه- نشأ في بيت رسول الله ﷺ، فكان يحاكي ويقلد الرسول في كل شيء، فصارت صلاته كصلاته (ﷺ).

أيّها الآباء، أنتم قدوة أبنائكم في كلامكم ومعاملاتكم ولباسكم وحركاتكم وفي خوفكم من الله، فاتقوا الله في أنفسكم وفي أولادكم.

واعلموا أن:

سيدَنا أبا **بكر الصديق** -رضي الله عنه- أنجب لنا **عائشة وأسماء**.

وسيدنا **علي بن أبي طالب** -رضي الله عنه- أنجب لنا **الحسن والحسين** سيدا شباب أهل الجنة.

وسيدنا **عمر بن الخطاب** -رضي الله عنه- أنجب لنا **عبد الله بن عمر**.

وسيدنا **عمرو بن العاص** -رضي الله عنه- أنجب لنا **عبد الله بن عمرو بن العاص**.

لذا، كن قدوة صالحة لأبنائك.